ابن الموهوب: حياته وقضايا عصره

د. أحمد صاري
جامعة الأمير عبد القادر

مقدمة

يعتبر محمد المولود بن الموهوب (1866-1939) من رواد النهضة الفكرية والثقافية ومن ألمع الشخصيات الجزائرية التي لعبت دورا متميزا خلال الربع الأول من هذا القرن. وهو من ابرز من مهد لظهور الحركة الإصلاحية في الجزائر بداية من العشرينات. ولذلك فلا غرابة أن يعده الدكتور أبو القاسم سعد الله "كزعيم لكتلة المحافظين" في بداية هذا القرن (1) وثاني مصلح في الجزائر ظهر بعد حمدان بن عثمان خوجة: "فمنذ حمدان خوجة، يقول سعد الله. ليس هناك مثقف جزائري آخر قد فهم واثر على تاريخ بلاده كما فعل ابن الموهوب" (2).

هذه المكانة الدينية والشهرة الأدبية والعلمية التي ميزت ابن الموهوب هي التي جعلته يتبوأ أعلى المناصب والوظائف: فمن مدرس بالمدرسة الرسمية الكتانية (3) ابتداء من سنة 1895 إلى تولي وظيفة الفتوى في قسنطينة سنة 1908. إلى فوزه بمنصب الإفتاء بمسجد باريس سنة 1926 يكون ابن الموهوب قد استحوذ على أهم المناصب الدينية والعلمية المتاحة لرجل الدين آنذاك. ولذلك لقبته جريدة النجاح (4) بشيخ الجماعة على منوال تسمية عبد القادر المجاوي قبله بهذا الاسم.

على الرغم من هذه المكانة المرموقة التي احتلها ابن الموهوب فإن الدراسات التي تناولت هذه الفترة أو تلك التي ترجمت للشخصيات الفكرية والثقافية لم تعكس صورته الحقيقية. فهذه الدراسات قد تطرقت إلى ابن الموهوب إما في سياق حديثها عن بداية النهضة الأدبية والفكرية أو تجاهلته تماما. ومن بين هذا الاتجاه الأخير نذكر عمار الطالبي مثلا. ففي مدخل كتابه ابن

باديس حياته وآثاره (5) الذي عنونه بـ "مدخل إلى الحياة العقلية والنهضة الحديثة بـالجزائر" (56ص) لم يول المؤلف أية أهمية لابن الموهوب. مع العلم أنـه تطرق إلى العديد من الشخصيات الدينية والفكرية والأدبية التي ميزت هذه الفترة (المجاوي ـ عبد الحليم بن سماية ـ مصطفى بن الخوجة ـ الحفناوي ـ محمد بن أبي شنب ...الخ). ونفس الملاحظات نسجلها على دراسة سعد الدين بن أبي شنب حول النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (6). وحتى أبو القاسم سعد اللّه الذي كان معجبا بابن الموهوب في كتابه الحركة الوطنية (الجزء II) فخصص له بعض الصفحات عند حديثه عن كتلة المحافظين. نجده يتراجع عن ذلك في سفره تاريخ الجزائر الثقافي (09 أجزاء) (7). فهو لم يول ابن الموهوب الأهمية التي يستحقها، بالرغم من ترجمته لكثير من الشخصيات العلمية والدينية التي لم تبلغ العديد منها مرتبة ابن الموهوب العلمية والفكرية. كما أن البعض منهم ليسوا في حاجة إلى ترجمة وتعريف، فقد نشرت حولهم العديد من الدراسات وحتى المؤلفات كعمر بن قدور وعمر راسم وأبو اليقضان مثلا. في حين أن شخصية ابن الموهوب والدور الذي لعبه والآثار التي تركها تحتاج فعلا إلى مزيد من البحث والاهتمام. وهذا ما أشار إليه سعد اللّه (8) في الستينات عندما كتب يقول: " والحق أن دور الشيخ ابن الموهوب في النهضة الجزائرية مازال لم يفهم بعد من طرف الكتاب بما في ذلك كتاب الجزائر أنفسهم. ذلك أن الكتاب اعتادوا أن يسلطوا الضوء على الحركة الإصلاحية خلال الثلاثينات فقط، عندما بدأ الشيخ عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء حملة الإصلاح.". بالرغم من هذا الاعتراف والتنبيه إلى نقص الدراسات حول ابن الموهوب إلا أن سعد اللّه لم يستغل في رأينا فرصة تأليفه لتاريخ الجزائر الثقافي ليعيد إليه الاعتبار ويسلط الضوء على الدور الذي لعبه خلال حقبة هامة من تاريخ الجزائر.

بقي أن نشير إلى أن ابن الموهوب وان كان لم يسترع انتباه الباحثين الأكاديميين فإنه لقي مقابل ذلك العناية من طرف بعض المعاصرين له والمهتمين بإحياء التراث الفكري والحضاري

للجزائر. فمن بين الأوائل الذين اهتموا بشخصية ابن الموهوب وأفكاره نذكر الشريف بن حبيلس الذي أولاه مكانة عالية في كتابه (L'Algérie française vue par un Indigène) (9). فقد كان معجبا به أشد الإعجاب، بالرغم من اختلاف التكوين والتوجه الفكري ما بينهما. فقد تابع نشاطه الثقافي ونقل العديد من خطبه التي كان قد ألقاها بنادي صالح باي بقسنطينة. كما اهتما به قوفيون (Marthe et Edmond GOUVION) في كتابهما أعيان المغاربة (10) واعتبراه واحدا من الأعيان وخصاه بترجمة في ثلاث صفحات، تحدثا فيها عن نسبه ومكانته الدينية والأدبية.

ومن بين الجرائد المعاصرة لابن الموهوب والتي اهتمت بنشاطاته قبل الحرب العالمية الأولى نذكر منها كوكب إفريقيا والتقويم الجزائري لمحمود بن دالي ـالمعروف باسم كحول ـ. كما أن لاديباش دي كوستانتين (La Dépêche de Constantine) قد ترجمت الخطب والمحاضرات التي كان يلقيها ابن الموهوب في نادي صالح باي. أما بعد الحرب العالمية الأولى فقد اهتمت جريدة النجاح بتتبع النشاطات الدينية والأدبية لابن الموهوب وأولته أهمية خاصة بعد توليه منصب الفتوى بجامع باريس الذي دشن سنة 1926. وكان ابن الموهوب أول من خطب بهذا المسجد في أول صلاة جمعة. كما اهتمت به هذه الجريدة بعد وفاته فغطت موكب جنازته ونقلت الخطب التي قيلت في رثائه، كما نشرت وقائع الحفل التأبيني الذي نظم له بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته.

أما بعد الاستقلال فإن أول من اهتم بابن الموهوب، في إطار تأريخه للنهضة الجزائرية وثورة التحرير، هو محمد علي دبوز (11) الذي خصص له عدة صفحات مذكرا بعلاقاته بالشيخ المجاوي ودوره الإصلاحي وآثاره الأدبية والشعرية. كما خصه محمد المهدي بن علي شغيب في كتابه أم الحواضر في الماضي والحاضر تاريخ مدينة قسنطينة (12) ببعض الصفحات. إلا أنه يظهر من خلال المقارنة ما بين ما كتبه دبوز وما كتبه بن علي شغيب آن هذا الأخير اعتمد على النقل في ترجمته لابن الموهوب، في حين كان من المستحسن به أن يضيف الجديد. وهذا لسببين اثنين: أولهما أن ابن شغيب قد اقتصر في كتابه على مدينة قسنطينة وأعلامها. فكان بإمكانه آن يدقق

ويحقق اكثر في هذه المواضيع. والاعتبار الثاني أن المؤلف من معاصري الشيخ ابن الموهوب (ولد سنة 1908)، فبدون شك أنه تعرف عليه آنذاك أو سمع عنه، على الأقل، من أفواه بعض المعاصرين له. كما كان بإمكانه جمع العديد من المعلومات حوله (كما فعل دبوز في الترجمة لأعلامه) من بعض شيوخ وعلماء قسنطينة الذين عرفوا ابن الموهوب.

بعد هذا العرض للمادة المتوفرة حول ابن الموهوب والمعروفة لدينا ـ على الأقل لحد الآن ـ يجدر بنا آن نتعرف على هذه الشخصية التي لعبت دورا بارزا في الوسط القسنطيني بصفة خاصة والوسط الجزائري بصفة عامة.

ثانيا: ابن الموهوب وعصره.

هناك شبه اتفاق ما بين أغلب من ترجموا لابن الموهوب حول نسبه ونشأته (13). فهو من مواليد مدينة قسنطينة سنة 1866، ويعود أصل أسرته إلى الشيخ الموهوب المدفون بالزاوية التي تحمل اسمه والموجودة بقرية ايمولا بلدية صدوق ولاية بجاية. في حين لا يذكر قوفيون Gouvion أصلا هذه الزاوية، ويرى بأن الجد محمد بن الموهوب قد انشأ زاوية في بني بزاز بمنطقة البابور، وكانت مركز إشعاع ثقافي ومأوى للمساكين (14). أما سعد اللّه فيرى أنه من الفرع الذي سكن جبال البابور ثم انتقل إلى قسنطينة، دون أن يذكر تاريخ ذلك (15).

ومهما يكن فالمولود بن الموهوب ينتمي إلى أسرة ذات علم. فقد درس والده على يد اشهر مدرسي قسنطينة كالمكي البوطالبي (16) ومحمد الشاذلي (17). وقد تقلد الوالد في فترة النظام العسكري وظيفة القضاء، فتولى إدارة عدة محاكم (18). أما فيما يتعلق بالابن المولود فبعد المدرسة القرآنية (المسيد) درس اللغة العربية والتوحيد وتابع دروس الشيخ محمد الدراجي في النحو، مما أهله لحضور دروس الشيخ عبد اللّه الإمام والخطيب بالجامع الكبير في قسنطينة. وأحد تلامذة الشيخ عليش المشهور (19). ويقول سعد اللّه آن المولود بن الموهوب تخرج من زاوية الشيخ الموهوب المسماة زاوية الشريف ايمولا. وهو في علمنا الوحيد الذي يذكر ذلك (20). ومع حلول

الشيخ عبد القادر المجاوي بقسنطينة (1886) لازمه ابن الموهوب لمدة 12 سنة وقرأ عليه العلوم الشرعية واللّغة العربية. وقد أجازه المجاوي وأذن له في التدريس والوعظ (21). واصبح بعد ذلك زميلا له بالمدرسة الرسمية الكتانية. التي وظف بها كمدرس سنة 1895. ويذكر قوفيون (22) أن توظيف ابن الموهوب جاء بناء على اقتراح من المستشرق موتيلنسكي (مدير مدرسة قسنطينة آنذاك)، في حين يذكر دبوز (23) أن عبد القادر المجاوي هو الذي رشحه لذلك. وقد تولى ابن الموهوب تدريس عدة مواد كالفقه. الأدب العربي وحتى الفلسفة. ثم تولى بعد ذلك تدريس التوحيد بعد انتقال المجاوي إلى مدرسة الجزائر العاصمة. بالإضافة إلى وظيفته التعليمية فقد كان لابن الموهوب نشاط اجتماعي وتربوي واسعين. فقد ساهم في تأسيس نادي صالح باي سنة 1907، وكان من ابرز منشطيه وذلك بإلقائه للعديد من المحاضرات والخطب.

وفي سنة 1908 عين ابن الموهوب في أعلى منصب ديني يتمناه كل عالم وهو وظيفة الفتوى. وقد كان هذا المنصب في السابق حكرا على بعض عائلات قسنطينة المعروفة. وألقى ابن الموهوب بهذه المناسبة خطبة دعا فيها إلى اليقظة والإقبال على التعليم ونبذ التعصب والجهل. دون أن ينسى توجيه الشكر إلى الحاكم العام شارل جونار الذي عينه في هذا المنصب (24).

وتعتبر هذه المرحلة الأولى (1895-1914) من مسيرة ابن الموهوب من أخصب الفترات في حياته. فقد كان له نشاط ديني وتعليمي و"جمعوي" كثيف. أما بعد الحرب العالمية الأولى فإن أهم وظيفة تقلدها، بالإضافة إلى وظائفه السابقة. فهي تعيينه مفتي لمسجد باريس. الذي فتح في شهر جويلية سنة 1926. وإذا كان هذا التعيين يخضع لشروط سياسية أكثر من خضوعه للشروط الدينية والأخلاقية. فإننا نعتقد أيضا آن اختيار ابن الموهوب من بين العديد من علماء المغرب وتونس يدل على مكانة هذه الشخصية. وكان ابن الموهوب أول من افتتح هذا المسجد بأول خطبة جمعة دعا فيها كعادته إلى ترك الجهل والخرافات والبدع والتزود بالعلم. وحسب مراسل جريدة النجاح (25) من باريس. مامي إسماعيل. أن السلطان المغربي مولاي يوسف. الذي حضر حفل

التدشين، قد اعجب بخطبة ابن الموهوب، ولذلك زاره في بيته وعبر له عن سروره بالخطبة وبتعيينه مفتيا للجامع. وعلى العموم يظهر أن ابن الموهوب بقي يشغل هذا المنصب إلى غاية وفاته في شهر افريل 1939.

وقد شهد عصر ابن الموهوب أحداثا وتقلبات سياسية عديدة تركت دون شك أثرها عليه، خاصة التطورات التي لها علاقة بكل جزائري، كأحداث الجزائر والعالم العربي والإسلامي. فالمعروف أنه مع نهاية القرن التاسع عشر كانت الدول الاستعمارية الأوربية في أوج قوتها، وبعد تنافس شديد فيما بينها، توصلت بعد عدة معاهدات واتفاقيات من الاستحواذ على أغلب قارتي إفريقيا وآسيا. فاحتلت فرنسا تونس (1881) ثم المغرب الأقصى (1912) واحتلت إنجلترا مصر (1882) وإيطاليا ليبيا (1911-1912). وقد عاصر ابن الموهوب كل هذه الأحداث الجسيمة التي مرت بها هذه المنطقة العربية. كما تابع دون شك الأحداث التي أفرزتها الحرب الكبرى والتي أدت إلى اقتسام ما تبقى من تركة "الرجل المريض" تركيا.

ومن جهة أخرى فقد عرف العالم العربي الإسلامي خلال هذه الفترة ظهور حركة إصلاحية كانت ترمي إلى إيقاظ الشعوب الإسلامية من سباتها ودفعها إلى مجاراة الدول الأوربية في تقدمها. وقد رأت هذه الحركة أنه لا سبيل للعالم الإسلامي للتقدم إلا بتحرير العقول من العادات القديمة المتوارثة وترك كل الشوائب التي أدخلت على الإسلام. وقد مثل هذا الاتجاه خاصة المصلحين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وبدون شك أن هذه الأفكار والاتجاهات كانت تصل إلى مسامع النخبة الجزائرية المثقفة بوسائل مختلفة؛ الجرائد، الرحلات العلمية، رحلات الحج ...كما يجب أن لا ننسى أن الجزائريين المثقفين تمكنوا من الاتصال مباشرة بأحد رواد الإصلاح وهو الشيخ محمد عبده الذي زار الجزائر سنة 1903.

ومن ناحية أخرى فقد عاصر ابن الموهوب أيضا بعض التطورات التي شهدها العالم الإسلامي والمتمثلة خاصة في علاقة الشعوب العربية بالخلافة العثمانية، ثم التحولات التي شهدتها تركيا والتي أدت بعد الحرب الكبرى إلى إلغاء الخلافة (1924) وإنشاء نظام جمهوري في تركيا.

فنحن لا نستبعد، كون المترجم له من آل ابن الموهوب وهي أسرة عريقة ومثقفة وابن لقاضي. وكفرد من سكان مدينة كبرى كقسنطينة، آن يكون قد تابع كل هذه التطورات، خاصة وأن سكان هذه المدينة كانوا على اتصال مباشر بالمشرق العربي عن طريق تونس.

وعلى الصعيد الداخلي فإن عصر ابن الموهوب قد تميز باندلاع آخر أكبر الانتفاضات التي شهدتها الجزائر وهي انتفاضة 1871، والتي كانت منطقة الشرق الجزائري مسرحا لها، ولكننا نستبعد آن تكون لهذه الأخيرة اثر مباشر على طفل لم يتعد سنه الخمس سنوات. غير آن محاكمة بعض رموز هذه الانتفاضة فيما بعد في مدينة قسنطينة بالذات، وما يترتب عن ذلك من ردود فعل على سكان هذه المدينة، يكون قد ترك بعض الأثر على ابن الموهوب. والحادث الآخر الذي عاصره ابن الموهوب هو انتفاضة الشيخ بوعمامة (1881-1883). غير أننا نستبعد أن يكون لهذه الأخيرة اثر على نفسية ابن الموهوب، نظرا لانتشارها في أقصى الجنوب الغربي ثم توسعها نحو المغرب الأقصى.

وبدون شك آن إخفاق هذه الانتفاضات يكون قد أوحى إلى رجال النخبة آنذاك، ومن بينهم ابن الموهوب، بضرورة تغيير أساليب المقاومة، ذلك أن الجزائريين بأسلحتهم التقليدية وبتنظيمهم القديم لا يمكنهم الصمود أمام أسلحة الفرنسيين الحديثة وتدريبهم المنظم. ومع نهاية هذه الانتفاضات وانتقال الحكم من العسكريين إلى المدنيين، شرعت فرنسا في سياسة جديدة مع الجزائريين وهي سياسة الإدماج. فقد كان شعارها آنذاك هو انه بعد احتلال الأرض لا بد من السيطرة على العقول. وكانت أهم وسائل فرنسا في ذلك نشر التعليم ما بين الجزائريين. وقد تميز التعليم الفرنسي مع بداية الثمانينات بالطابع الائكي والمجاني والإجباري. وبطبيعة الحال فمن

بين الأغراض غير المعلنة من هذا التعليم هو كبح جماح التعليم العربي المتميز بالصبغة الدينية. إلا آن هذه السياسة التعليمية قد أدت في نهاية المطاف إلى إهمال التعليم العربي دون التمكن من نشر التعليم الفرنسي، إذ لم يبلغ عدد المتمدرسين من الجزائريين في نهاية القرن التاسع عشر بالمدارس الفرنسية اكثر من 2%.

ومن جانب أخر فقد تميز عصر ابن الموهوب أيضا بحرمان الجزائريين من الحقوق السياسية. فالجزائريين الذين رفضوا التجنس بالجنسية الفرنسية بقوا في مرتبة "الأهالي". فهم يقومون بكل الواجبات دون أن يحصلوا على أدنى الحقوق. ولذلك حرموا من المساواة في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ومن أهم مميزات هذا العصر في المجالين الديني والاجتماعي هو الانحطاط الكبير والتدهور الذي شهدته الزوايا والطرقية. فهذه الأخيرة وبعد أن قامت بدور تعليمي وثقافي كبيرين، إذ كانت تشكل أهم المراكز الثقافية والتعليمية. واستبسلت في مقاومة الاستعمار خلال الخمسين سنة الأولى من الاحتلال. بدأت منذ الثمانينات في التحول عن مهامها وذلك بالتقرب من الإدارة الاستعمارية للحصول على الامتيازات والنفوذ. وعلى العموم فقد ساهمت في نشر الغيبيات بالتركيز على كرامات شيوخها وإعطاء مفهوم خاطئ لقضيتي القضاء والقدر.

ونتيجة لهذا التدهور كان لابد من رد فعل يحارب هذه الأفكار البالية والمتوارثة. وبالفعل فقد برزت طبقة مثقفة كان هدفها انتشال الجزائريين من مخلفات الجهل والخرافات وتوجيههم إلى الطريق الصحيح. وتزامن ذلك مع ظهور صحافة "أهلية" باللّغتين العربية والفرنسية. واستطاعت هذه النخبة، عن طريق هذه الوسيلة الجديدة من تبليغ رسالتها ونشر أفكارها، ومقاومة المظاهر التي كانت تراها معرقلة للتقدم والتحرر. كما باشرت هذه النخبة في تأسيس الجمعيات والنوادي بداية من هذا القرن واستغلتها في نشر الوعي لدى الجزائريين، كما اتخذتها مجالس للاجتماع والنقاش وتبادل المعلومات والآراء حول قضايا الساعة آنذاك (26).

غير أن هذه الفئة لم تكن موحدة في تفكيرها واتجاهها وأهدافها. فالنخبة المحافظة تأكد على أسس ومقومات الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية وتريد ربط مصيرها بالعالم العربي الإسلامي، وذلك بنشر التعليم العربي وتنبيه الجزائريين إلى الأخطار التي قد تلحق بهم وبأمتهم نتيجة سياسة الإدماج. أما النخبة الليبرالية التي تخرجت من المدارس الفرنسية فقد كانت تعمل عكس ذلك. فهدفها هو الارتباط كلية بفرنسا وبثقافتها وحضارتها عن طريق الإدماج والذوبان في المجتمع الفرنسي. ولذلك فقد أرادت قطع صلتها بالعالم العربي الإسلامي وبمجتمعها التقليدي "المتخلف" في نظرها. ومن أجل ذلك فقد طالبت بالتجنس وبتسهيل الحصول عليه. كما طالبت بالحقوق السياسية وبتوسيع التعليم الفرنسي حتى يشمل أكبر نسبة من الجزائريين. فهو في نظرها أحسن وسيلة للإدماج. كما قبلت هذه النخبة التجنيد الإجباري الذي فرضته فرنسا على الجزائريين، في حين رفضه المحافظون لأسباب دينية وقومية. ونظموا من أجل ذلك حركات احتجاجية وأرسلوا الوفود والعرائض إلى المسئولين الفرنسيين.

ثالثا: ابن الموهوب وقضايا عصره.

إذا ما استثنينا العشرية الأولى من القرن العشرين، والتي تميز فيها ابن الموهوب بنشاط واسع تمثل خاصة في المحاضرات والخطب التي كان يلقيها في نادي صالح باي. والتي عبر فيها عن بعض مواقفه من قضايا عصره (الجهل، التخلف، البدع، التعليم...) فإن ما ميز ابن الموهوب فيما بعد هو صمته الشبه الكامل من مختلف القضايا التي كانت تشغل تفكير الرأي العام الجزائري. فنحن لا نعثر له على مواقف واضحة من القضايا التي عاصرها. فالذي يريد أن يعرف موقفه من قضايا التجنس، التجنيد الإجباري، إلغاء الخلافة العثمانية، وبعض المسائل الاجتماعية والسياسية الأخرى يبقى على عطشه. فالملاحظة التي نخرج بها بعد إطلاعنا على جرائد تلك الفترة، وخاصة صحف العشرينات والثلاثينات أن ابن الموهوب لم يكن يشارك في المناقشات التي كانت تدور آنذاك على أعمدة هذه الصحافة. وقد يرجع سبب ذلك إلى أن ابن

الموهوب وبوصفه موظف رسمي لدى الإدارة الاستعمارية لم يكن مطلق الحرية للإفصاح عن آرائه، فهو مطالب بواجب التحفظ. كما أن هامش المناورة لديه محدود. فهناك حدودا لا يمكن لأي موظف رسمي من رجال الدين أن يتجاوزها. ومع ذلك فقد استغل ابن الموهوب وظيفته هذه في نشر أفكاره دون آن يصطدم بعرقلة الإدارة له.

وقد عبر عن موقف ابن الموهوب هذا أكثر من ملاحظ. فقد قال عنه محمد علي دبوز، مع شيء من المبالغة: أنه :"كان أدهى وأبرع في السياسة. لطم الاستعمار وهو في حجره، وعمل ضده وهو موظف يرضع أثداءه. وكان رحمه الله من السباحين الماهرين الذين يسبحون في النهر ولا تبتل ثيابهم..." (27). نفهم من هذا آن ابن الموهوب لم يخضع للأوامر الإدارية خضوعا أعمى، كما كان يفعل بعض "رجال الدين". حتى أن منهم من كان يتجسس على زملائه لحساب الإدارة (28)، بل أنه كان يعمل على إصلاح المجتمع من داخل مهمته الرسمية هذه. وهذا ما تبينه المحاضرات والخطب التي كان يلقيها سواء في نادي صالح باي أو في المساجد. ويذهب أحمد توفيق المدني إلى تأييد وتأكيد ما قاله دبوز. فهو منذ نزوله بقسنطينة سنة 1925، بعد نفيه من تونس، يظهر إعجابه الكبير بابن الموهوب. فيقول عنه أنه "أول من بشر بالإصلاح الإسلامي قولا وكتابة وألف ونشر أرجوزة ضد الطرقية" (29). وإذا ما صدقنا الحديث الذي جرى ما بين المدني وابن الموهوب في هذه الأثناء حول دور رجال الدين وخدمتهم للاستعمار فيظهر آن ابن الموهوب قد حدد منذ البداية قواعد اللعبة: "وبيني وبين الفرنسيين حاجزا لا أتخطاه سعيا إليهم، وحاولوا تخطيه سعيا إلي فما نجحوا أقوم بواجبي نحو أمة الإسلام. ولا أبخل بشيء مما أتاني الله من علم على جماعة المسلمين." (30). ويظهر أيضا آن ابن الموهوب لم يكن يعارض منهج المدني في النضال حتى بعد نفيه من تونس - فقد نصحه بالسير في طريقه وجهاده. وإذا ما ثبت هذا فذلك يعني أن ابن الموهوب لم يقف في وجه الإصلاح في شكله الجديد الذي ظهر مع ابن باديس وبقية العلماء. كما نفهم من ذلك أنه لم يكن مخلصا للإدارة وموواليا لسياستها بدون تحفظ. كما ورد في العديد من

الدراسات حول مواقف رجال الدين من هذه القضية. خاصة إذا ما علمنا آن ابـن الموهـوب قـد نبـه المدني إلى خطورة الجواسـيس الـتي كـانت تبثـهم الإدارة الاسـتعمارية في الوسـط الجزائـري. ولا نعتقد أن اعتراف توفيق المدني جاء بطريقة اعتباطية وبدون مبرر. فمـا السـبب الـذي يدفعـه إلى ذلك لو لم تكن هذه هي حقيقة ابن الموهوب، خاصة وآن المدني قد اعترف منذ الثلاثينـات. أثنـاء تأليفه لكتاب الجزائر (1931)، بدور ابن الموهوب مصرحا: "هـذا وإنـي قـد تحاشـيت علـى قـدر الإمكان ذكر الشعراء الكبار والعلماء والأعلام من الموظفين الرسميين خشية أن يحرجـهم ذلـك وفي الموظفين الرسميين من قضاة ومدرسين ومفتيين وغيرهم كنوز من العلوم والمعارف والآداب هي مـن الجزائر والى الجزائر. وعلى رأسهم العلامة الجليـل بقيـة السـلف الصـالح الشيخ سـيدي محمـد المولود بن الموهوب مفتي الديار القسـنطينية وأول مـن أشـهر في أرض الجزائـر حملـة علـى البـدع والخرافات ولـه في ذلـك قصيـدة عصمـاء مطبوعـة ومشـروحة." (31). بعـد هـذه الشـهادات الـتي أجمعت على استقلالية ابن الموهوب من خلال مواقفه ومنهجه في الإصلاح. يبدو لنـا مـن الصعـب وصفه بـ"العميل" لفرنسا. ذلك آن هذا المصطلح لا يتناسب مـع مواقـف ابـن الموهـوب ولا مـع تلـك الفترة. اكثر من ذلك يظهر لنا بان نعت ابن الموهوب بـ"الشـيخ الاندمـاجي" حكـم ليـس في محلـه (32). فالمعروف، خلال الحقبة الاستعمارية، آن الكثير من قادة الرأي والشخصيات كانوا موالين سياسيا لفرنسا ولكنهم كانوا معارضين لسياسة الإدماج التي تعني التخلي عن مقومات الشـخصية الوطنية من لغة ودين وعادات ...الخ والذوبان في المجتمع الفرنسي. فهل آن ابن الموهوب كـان مـن أنصار هذه السياسة حتى نلقبه بالاندماجي؟ كما لا يمكن أن نستنتج انه كان يسلك نفـس سياسـة الشريف بن حبيلس، المؤيد للاندماج، بمجرد أن هذا الأخير كان مؤيدا ومعجبا بابن الموهوب.

ومن جهـة أخـرى فيمكننـا أن نتصـور أن ابـن الموهـوب قـد اختـار هـذا الطريـق الإصلاحـي التدريجي عن اقتناع تماشيا مع تعاليم محمد عبده ونصائحه للجزائريين بالابتعـاد عـن السياسـة والاهتمام بإصلاح المجتمع إصلاحا تربويا اجتماعيا، وذلك بالقضاء على أسباب الجـهل والدعـوة

إلى ضرورة التعلم. فمن المعروف أن الشيخ محمد عبده قد زار الجزائر العاصمة سنة 1903 والتقى هناك بأهم الشخصيات الأدبية والدينية (المجاوي، ابن سماية، ابن الخوجة...) وقد تأثرت هذه المجموعة بأفكاره وأرادت تقليده في إصلاحه (33). ويذكر أبو القاسم سعد اللّه أن الشيخ محمد عبده قد قام أيضا بزيارة خاطفة إلى مدينة قسنطينة وهو الأمر الذي لم يذكره الكتاب الذين اهتموا بهذه الزيارة من قبل (علي مراد، المهدي البوعبدلي). وقد هاجم محمد عبده أثناء هذه الزيارة الطرق المبتدعة والجهل (34). ويعتقد سعد اللّه آن من بين مستقبليه في قسنطينة قد يكون الشيخ المولود بن الموهوب وحمدان الونيسي. ويذكر أيضا آن ابن الموهوب كان من بين المعجبين بالشيخ محمد عبده وأنه ارتبط به مع الجماعة الأخرى (35). وإذا ما تأكد هذا الخبر فإن ابن الموهوب يكون قد اقتنع بتعاليم محمد عبده وسار عليها، خاصة وأن محمد علي دبوز (36) يذكر أن ابن الموهوب لم يكن يهتم بالجزائر فقط وإنما بكل الأقطار الإسلامية فقد :"كان مغرما بالجرائد والمجلات العربية التي ترد من الأقطار العربية، سيما الوطنية والإصلاحية كمجلة المنار". ومعنى ذلك أن علاقة ابن الموهوب بمحمد عبده والحركة الإصلاحية المشرقية تعود إلى ما قبل هذه الزيارة. وقد يعتبر بذلك من مدرسة محمد عبده التي ذكرتها مجلة المنار.فمن المعروف آن هذه المجلة كانت هي الواسطة ما بين هذه الجماعة ومحمد عبده.

وعلى أية حال فلابن الموهوب بعض المواقف من قضايا عصره. وقد عبر عنها في محاضراته وخطبه في بداية هذا القرن بنادي صالح باي. وفي الخطب الدينية التي كان يلقيها بالجامع الكبير بقسنطينة أو بجامع باريس. وقد نشرت الجرائد آنذاك العديد منها. فالمحاضرات التي ألقاها بنادي صالح باي كلها إشادة بمنافع العلم وإظهار مضار الجهل فهو يقول انه لا توجد حياة حقيقية خارج العلم. ولا يوجد علم بدون بحث ولا بحث بدون رغبة كبيرة في الكمال. وهذه الرغبة لا يمكن أن توجد في أمة تنقصها الثقافة والتعليم الإجباري للجميع. وهذه هي الغاية الحقيقية من الحياة. وهي الطريق الوحيد الذي يجعل الإنسان أعلى درجة من الحيوان. وفي ختام

كلامه يصيح قائلا: ليحي العلم وحامييه. وليمت الجهل وناشريه (37). وفي محاضرة أخرى يحث ابن الموهوب على العمل وترك الكسل. مستشهدا في ذلك بالقرآن والأحاديث النبوية. ويدعو مواطنيه إلى ضرورة الانتباه إلى العنصر الأوربي واتخاذه كمثال في التربية والاتحاد. كما يحث على التعليم، وخاصة تعلم اللغتين العربية والفرنسية (38).

ومن مواقفه البارزة أيضا انتقاده للبدع والخرافات التي كانت منتشرة في المجتمع الجزائري. فقد حمّل بعض الطرق الصوفية مسئولية انتشار الأمراض الاجتماعية. وظهرت بعض توجهاته الإصلاحية هذه في بعض الجرائد آنذاك. ولكنها ظهرت بوضوح في كتابه أدب الطرق. وقد لقي ابن الموهوب من أجل ذلك معارضة شديدة من طرف شيوخ الطرق والبرجوازية القسنطينية. خاصة وأن هذا الانتقاد والإصلاح صدر من طرف شخص يعتبر "أجنبي" عن قسنطينة. وفي القصيدة الشعرية "المنصفة" التي نشرها ابن الموهوب في كوكب إفريقيا (1910) انتقاد لاذع للأفكار المسبقة والمتوارثة في المجتمع القسنطيني. وقد أحدثت هذه القصيدة رد فعل كبير، ولذلك رغب الرأي العام "المثقف" في معرفة رأي بعض الكتاب الكبار من هذه المسألة. وقد تولى هذه المهمة الشيخ عبد القادر المجاوي. بإلحاح من أصدقائه وتلامذته وبين المجاوي في شرحه لقصيدة ابن الموهوب هذه البدع التي أدخلت على الإسلام. (39).

وبالرغم من هذه المعارضة إلاّ آن ابن الموهوب لم ييأس ولم يتراجع عن موقفه الإصلاحي. ومن بين الطرق التي استعملها للتحاور مع شيوخ ومقاديم الطرق والزوايا في محاولة لإقناعهم هو انه جمع هؤلاء خلال سنة 1926 في الجامع الكبير وأعطاهم دروسا. قبح فيها البدع ونصحهم بتركها، وخاصة بدع الطرق العيساوية والطيبية والعمارية التي كانت منتشرة بكثرة في قسنطينة والمتمثلة خاصة في أكل الزجاج واللعب بالنار وبالثعابين...وحسب جريدة النجاح التي أوردت الخبر أن مقاديم هذه الزوايا قد ساندوه في فكرته هذه (40).

وللقضاء على البدع يرى ابن الموهوب ضرورة التخلص من الجهل والدعوة إلى العلم. فهو يقول في أول خطبة جمعة له بجامع باريس : "إن العلم يتبعه كل خير وكمال. وان الجهل لا يفارق صاحبه الهم والنكال. ولا ترفع الأمة إلا ببذل المال من الرجال." (41).

هذا وإن كان ابن الموهوب صريحا في ميدان الإصلاح الديني بمقاومته للبدع وللأمراض الاجتماعية فإنه كان محافظا في الميدان السياسي فلم يفصح عن موقفه من قضايا عديدة أخرى كالموقف من التجنيد الإجباري مثلا. فالمعروف أن هذه القضية قد أثارت خلال السنوات 1910-1914 نقاشا كبيرا في الوسط الجزائري وأدت إلى انعكاسات خطيرة والى تطورات سياسية هامة. لكنه يمكننا أن نستنتج. من خلال تعرفنا على تكوين وتفكير ابن الموهوب، انه كان يعارض سياسة التجنيد الإجباري. وهذا الرفض كان مشتركا بين جميع من يسميهم سعد الله بكتلة المحافظين: " فقد كانوا جميعا مؤيدين متحمسين للوطنية (بشكلها القديم) وللقومية الإسلامية. كانوا الأعداء غير المساومين لفكرة التجنس، وللخدمة العسكرية تحت العلم الفرنسي، وللتجديد على الطريقة الغربية..." (42). وفي ما يتعلق بموقفه من فرنسا عند اندلاع الحرب الكبرى، وخاصة بعد دخول تركيا هذه الحرب فإن مجلة العالم الإسلامي (Revue du Monde Musulman) لشهر ديسمبر 1914، والتي نشرت فتاوى ورسائل تأييد وولاء شيوخ الطرق الصوفية والأعيان ورجال الدين، قد أشارت إلى آن ابن الموهوب المفتي المالكي بقسنطينة وعبد الكريم باش تارزي مفتي المذهب الحنفي وشخصيات أخرى قد أوصوا مواطنيهم بمساعدة فرنسا في هذه الظروف الصعبة. لكنه من الصعب التحقق من مصداقية هذه التصريحات والوصايا، خاصة وأنها نشرت من طرف جهات فرنسية مقربة من الإدارة. كما آن هذه الأخيرة كان همها الأساسي الحصول على هذا "الصك" من أجل طمأنة الجزائريين وتفادي تشكل رأي عام معادي لفرنسا أو حصول اضطرابات. زيادة على ذلك فمن المستحيل آنذاك التصريح بالرأي المعارض، خاصة إذا علمنا أن ابن الموهوب كان من موظفي السلك الديني الرسمي. وعن هذا يقول سعد الله: "نحن نعلم

أن هذه الفتاوى والنصائح قد تكون صادرة عن الإدارة الفرنسية نفسها. وأنه لا حول ولا قوة لهؤلاء الشيوخ في رفضها أو تعديلها" ، ولكنه يضيف أيضا"ولكننا لم نسمع عن أحد منهم أنه استقال من منصبه" (43).

إن الصمت الذي ميز ابن الموهوب قبل سنة 1920 هو الذي يميزه أكثر في الفترة اللاحقة. فبالرغم من أن بعض القضايا كانت تستدعي منه التعبير عن رأيه لأنها كانت تشغل بال النخبة الجزائرية خلال العشرينات كوضعية الجزائريين غداة الحرب الكبرى ومسألة التجنس التي أخذت أبعادا جديدة بعد صدور قانون فيفري 1919 وظهور بعض الصحف والمجموعات المؤيدة لها، وكذلك مسألة إلغاء الخلافة من طرف مصطفى كمال أتاتورك (1924). إلا أننا لم نعثر لابن الموهوب على مواقف مؤيدة أو معارضة لهذه المسألة أو تلك. ونفس الشيء يقال عن مواقفه خلال الثلاثينات، بحيث لم نعثر له على ما يعبر عن موقفه من قضايا الساعة آنذاك كالموقف من العلماء، ومن المؤتمر الإسلامي، ومن قضية اغتيال الإمام كحول، خاصة وأن هذا الأخير وابن الموهوب كانا من نفس المدينة (قسنطينة)، وهو أيضا من رجال السلك الديني الرسمي، إذ كان يشغل منصب إمام بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة.

الهوامش

(1) أبو القاسم سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930. (الجزء الثاني). ط1. دار الآداب. بيروت. 1969. ص 174.

(2) المرجع نفسه. ص 180.

(3) فتحت سنة1850 في مقر المدرسة الكتانية التي كان قد أسسها صالح باي. وهي ثالث مدرسة أسسها الفرنسيون إلى جانب مدرستي الجزائر وتلمسان. وتتمثل وظيفتها في تخريج الموظفين من قضاة ومدرسين ومترجمين. في البداية تولى إدارة هذه المدرسة جزائريون ثم أصبح يديرها فرنسيون ابتداء من سنة 1883. في سنة 1907 حولت المدرسة من مقرها القديم بسوق العصر إلى المقر الجديد الذي تشغله الأكاديمية الجامعية للشرق حاليا

(4) النجاح. 25 أفريل 1939.

(5) عمار الطالبي. ابن باديس حياته وآثاره. الجزء الأول. ط 1. دار اليقظة العربية. 1968.

(6) سعد الدين بن أبي شنب: "النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري" مجلة كلية الآداب. العدد الأول. 1964. ص ص 33-66.

(7) أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي (1516-1954). 09 أجزاء. دار الغرب الإسلامي. بيروت. 1998.

(8) الحركة الوطنية الجزائرية. مرجع سابق. ص 180.

(9) Chérif Benhabilès, L'Algérie française vue par un Indigène, imp. Fontana, Alger, 1914,

(10) M. et Ed. Gouvion, Kitab Aâyane El-Marhariba) dépt. de Constantine), imp. Fontana, Alger, 1920.

(11) محمد علي دبوز. نهضة الجزائر المباركة وثورتها المباركة. الجزء الأول. ط1. المطبعة التعاونية. (دون مكان). 1965.

(12) محمد المهدي بن علي شغيب. أم الحواضر في الماضي والحاضر تاريخ مدينة قسنطينة. مطبعة البعث. قسنطينة. 1980.

(13) أنظر Gouvion. المرجع نفسه. ص 112. النجاح. 14 جويلية 1926. دبوز. المرجع نفسه. ص ص 135-137.

(14) Gouvion. المرجع نفسه. ص 110.

(15) تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ص 190.

(16) تولى التدريس بمدرسة قسنطينة منذ إنشائها سنة 1850 إلى غاية سنة 1865 تاريخ وفاته، وكان قبل ذلك قد شغل منصب القضاء.

(17) أديب وشاعر يرجع اصل أسرته إلى عرش البوازيد بمنطقة طولقة. أكمل تعليمه بقسنطينة، ثم عين بها قاضيا (1844). أول مدير للمدرسة الرسمية الكتانية منذ تأسيسها سنة 1850، وبقي في هذا المنصب إلى غاية وفاته سنة 1877. وكان قبل ذلك قد سافر إلى فرنسا وآنس الأمير عبد القادر في سجنه بأمبواز بفرنسا. أنظر حوله: أبو القاسم سعد الله، القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني. دراسة ونصوص. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، 1985؛ Saint-Calbre: «Constantine et quelques auteurs arabes Constantinois. »In. Revue Africaine, n°57, 1913, pp. 70-95.

(18) Gouvion، المرجع نفسه، ص 111.

(19) الشيخ عليش (1217-1299هـ/ 1802-1882م)، فقيه من أعيان المالكية، أصله من فاس واستقرت أسرته بطرابلس (ليبيا). ولد بالقاهرة وتعلم في الأزهر. تولى مشيخة المالكية ووظيفة الافتاء بالديار المصرية. له عدة تآليف.

(20) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 3، ص 190.

(21) دبوز، المرجع نفسه، ص 127.

(22) Gouvion, op. cit. p. 120.

(23) دبوز، المرجع نفسه، ص 138،

(24) أنظر نص الخطبة في سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص ص 193-198.

(25) النجاح، 28 جويلية 1926.

(26) أنظر أحمد صاري: "دور الجمعيات والنوادي الثقافية في الوعي الوطني الجزائري (1919-1939)" بحث منشور في أعمال المؤتمر الثاني لمنتدى التاريخ المعاصر حول "الثقافات والوعي الوطني في العالم العربي المعاصر". منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات. زغوان. جويلية/تموز 1999.

(27) دبوز، المرجع نفسه، ص 137.

(28) حول موقف الإدارة الاستعمارية من شؤون الديانة الإسلامية وتصرف بعض "رجال الدين الرسميين" أنظر مقالنا: **question de l'indépendance du culte"L'Association des Ulama Musulmans Algériens et la musulman » In. Revue d'Histoire Maghrébine, n°95-96, 1999.**

(29) أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، الجزء الثاني ـ في الجزائر 1925ـ1954. ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 20.

(30) المرجع نفسه.

(31) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر (1931)، ط2، دار الكتاب، البليدة، 1963، ص 96.

(32) عبد الله حمادي، جريدة النصر، 25/24 سبتمبر 1993.

(33) حول زيارة محمد عبده إلى الجزائر انظر: **Ali Merad:«L'enseignement politique de Muhammad Abduh aux Algériens (1903). » In. Orient, n°28, 4 trim. 1963, pp. 75-123.)**

المهدي البوعبدلي: "جوانب مجهولة من آثار زيارة محمد عبده للجزائر عام 1903م ـ 1322ه" الأصالة، العدد 54ـ55، فيفري ـ مارس، 1978، ص ص 72ـ88؛

Rachid Bencheneb: «Le séjour du sayh Abduh en Algérie) 1903) »In. Studia Islamica LIII, G.P. Maisonneuve et Larose, Paris, 1981. pp. 121-135.

(34) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 4، ص 595.

(35) المرجع نفسه، ص 590ـ592.

(36) دبوز، المرجع نفسه، ص 138.

(37) أنظر ذلك في ابن حبيلس، مرجع سابق، ص ص 151ـ152.

(38) انظر المرجع نفسه، ص ص 164ـ67.

(39) **Ch. Benhabilès, op. cit. p. 85.**

(40) النجاح، 17 أكتوبر 1926.

(41) النجاح، 30 جويلية 1926.

(42) سعد الله، الحركة الوطنية، ج 2، ص 170.

(43) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 4، ص 382.